

العمي يبصرون والصم يسمعون

ان لم يكن للتعدن الحالي حسنة يمدح اهله عليها ومأثرة يمددون لاجلها غير سعي الانسان في تخفيف بلايا الانسان فكفى بها حسنة تذكر ومأثرة تشكر . وان لم يكن هناك دليل على ما يستطيع الانسان عمله بالصبر والمثابرة والثبات غير الحكاية التي نحن بصددها فكفى بها دليلاً على ان هذه المنائب قد تفعل العجائب . فان كان العمي قد ابصروا والصم قد سمعوا قديماً يد غير منظورة امتدت بما وراء الطبيعة وغرقت حجابها فهم يبصرون الآن ويسمعون برصائط طبيعية واسباب منظورة رائدها الصبر ومحوها طول الاناة

هلن كلفر فتاة اميركية ولدت سنة ١٨٨٠ وما استكملت سنة ونصفاً من عمرها حتى منيت بمرض ذهب يبصرها وبسمها وبقيت حاسا الذوق والشم فيها طبيعيتين وصحتها حسنة . وبفقد بصرها وسمها فقدت كل واسطة للتفاهم والتخاطب بل فقدت المقدرة على النطق وهي اخمض ما يميز به الانسان على الحيوان . ولو فقدت بصرها فقط لكان تعليمها الكلام بسيطاً كتعليم لساير العميان ولكنها فقدت معه السمع ولذلك لم تسمع كلاماً حتى نقلده وتعلم النطق نبات عمياء طرشاء خرساء وبات التخاطب منها امرًا مستحيلًا او في حكم المستحيل على انها تعلم التفاهم بالاشارات فقامت مقام الكلام فصارت تفهم وتفهّم بالاشارات والممس . واغرب من ذلك انها صارت تكتب وتكلم . ومن جملة ما كتبت قصة عنوانها "حكاية حياتي" قصت فيها الوسائل التي استعملت لها منذ طفوليتها حتى الآن فقالت في وصف ما تعلمته بين اهالي "هرّ الرأس ذات اليمين وذات الشمال يقوم مقام الكلمة لا وإنفاضة الى الامام مقام نعم . وجذب المخاطب باليد مقام تعال ودقعة مقام اذهب . وكنت اذا أردت ان اطلب خبزاً وزبدة لآكل اقلد حركات قطع شرائح الخبز ودهنها بالزبدة . واذا اردت ان يصنعوا لي شيئاً من الدندمة للشاء كنت اقلد حركات صانع الدندمة وحركات الذي تأخذ القشمية من البرد . ولا بلغت الخامسة من عمري تعلمت طي الثياب النظيفة بصد غشها وكنت اميز ثيابي من ثياب غيري"

ولا بلغت العاشرة من عمرها كتبت نقول "لما كنت طفلة صغيرة كنت اجلس في حضن امي واكره ان اترك وحدي وكنت اضع يدي على وجهها واسرّ بجنس شفتيها وهي تكلم فلم اكن اعلم حينئذ ما ذا كانت تفعل لاني كنت اجهل كل شيء"

وقفت فصلاً اخرى عن تذكرته من امور طفوليتها تجتري بما تقدم منها ونذكر بعض الشيء عن طرق تعليمها : وذلك ان اهلها اترها بعملة في ٣ مارس سنة ١٨٨٧ اي بعدما بلغت السابعة من عمرها . وهاك ما قالت المعلمة في وصف اجتماعها بها المرة الاولى قالت : —
 ” استعملت تعليمها في بادىء الامر لعبة صغيرة وكمكة لانها كانت مولعة باللعب واكل الحلويات شأن الصغار . فاعطيتها اللعبة ورسمت اشارات حروف اسمها باصبعي في كفها . فابتدت الحيرة وسمت يدي فاعدت ذلك لها فقلدت حركات يدي واشارت الى اللعبة . وبعد ذلك اخذت اللعبة منها على نية ان ارجعها اليها بعدما تعلم رسم حروف اسمها جيداً ولكنها ظنت اني اريد سلبها اياها فضضبت وحاولت استرجاعها مني فلم اعطها اياها بل قدمت لها الكمكة ورسمت حروف اسمها في كفها فدت يدها لاخذها ولكنها ترددت في اعطائها اياها واعلمت رسم الحروف في كفها فقلدتني حالاً فاعطيتها الكمكة ”

وبقيت المعلمة نحو اسبوعين على هذه الحال وهي ترمم اسماء بعض الاشياء والافعال في كنف النتاة مثل اللبن والماء والاب والام ومشى وجلس فتعلمتها ورتخ في ذهنها ان جميع الاشياء يعبر عنها بالحروف والاشارات فجعلت تسأل عن اسم كل شيء وعثرت عليه منذ ذلك الحين اي عن الاشارات الكتابية التي تدل على ذلك الشيء حتى تعلمت مرة ثلاثين اسماً جديداً في ساعات قليلة . وفي ٢٢ مايو بلغ ما تعلمته نحو ٣٠ كلمة . وفي ١٩ يونيو ٤٠٠ كلمة وفي آخر اوغسطس ٦٢٥ كلمة . وفي آخر السنة الاولى من تعليمها ٩٠٠ كلمة

ولم تطل الحال عليها حتى اخذت تعلم الجمل بعد الكلمات . وكانت قد كتبت مكتوباً مؤلفاً من ٣٠ كلمة بعد اربعة اشهر من شروعها في تعلم الكتابة . وسنة ١٨٩٠ بلغت السنة العاشرة من عمرها وكانت قد التقت التخاطب بالاشارات اليدوية مع من يفهمها ولكنها ابدت رغبتها في التلقظ والنطق باللسان بدلاً من الاشارات باليد وقد قالت في ذلك ” وكنت أحدث اصواتاً واضع يداً على عنقي واخرى على شفتي . وكنت امره بكل شيء يحدث صوتاً حتى اني كنت اللد بوضع يدي على عنق القط وهو يهوه والكلب وهو ينج والمغني وهو يغني . ”
 وسألت معلمتها يوماً ” كيف تستطيع بنت عمياء ان تبلغ السامعين مرادها بواسطة فها ”
 فاخذت المعلمة يدي الفتاة ووضعتهما الواحدة على عنقها والاخرى على شفتيها وجعلت تتكلم فشعرت الفتاة بحركات الخنجرة والشفتين ثم جعلتها تقلد تلك الحركات على قدر الامكان فتعلمت بذلك احداث الاصوات . وبعد صبر طويل ومشقة كثيرة وسنين من التمرين تعلمت كيفية النطق ولكن جاء نطقها ناقصاً غير مفهوم جيداً بعيداً عن النطق الطبيعي

ولم تزل نتقدم شيئاً شيئاً حتى دخلت كلية ردكف واخذت لتعلم مبادئ الفلسفة كل ذلك وهي لا تسمع ولا تبصر. فاذا اراد رجل غريب معادتها وضعت اصابعها على شفتيه وعنقه وقرأت الاصوات عند خروجها من فيه ولكن يقتضي ان يكون التكلم معها بطيئاً واضحاً. وبهذه الطريقة تعلمت التكلم بالفرنسية والالمانية والايطالية

وهي شديدة التأثر باهتزازات امواج الهواء حتى يجزئ للتأثرين اليها انها تسمع الاصوات سمعاً. وقد كتبت في هذا الصدد نقول اذا امسك يد انسان شعرت بما يدور في نفسه وايدي الذين التي بهم فصيحة ولو كانت لا تنطق فتمس بعض الايدي يدعو الى الاشمزاز وتمس غيرها يدل على ان قلوب اصحابها خالية من كل مسرة فكنتم اشعر حيننا المسهاك في اصاغ زوبعة في القطب الشمالي. وايادي غيرهم كانت تنبض بنور كنور الشمس فاذا لمسها شعرت بجمرة دبت في قلبي ولذلك كنت امس بمصافحة الاسدقاء المحبين كما امر بتلاوة مكاتيبهم وكنت اتف وسط الكنيسة عند اللعب على الارغن الكبير فاشعر بصددمات امواج الصوت لجسي كما تصدم امواج الماء الفينة الصغيرة في البحر. قالت معلمتها في وصف تجربة جربوها معها وهي في الثامنة من العمر لعلوا ما اذا كانت تسمع او لا " فكانوا يصفرون لها ويحدثون اصواتاً اغنيادية فندبر رؤسها وتبسم كأنها سمعت ما جرى حتى دهش الحاضرون وكنت واقفة بجانبها وماسكة يدها فظننت ان التأثيرات كانت تنتقل مني اليها فوضعت يديها على مائدة كانت امامها ووقفت بعيدة عنها وجعل الحاضرون يصفرون ويحدثون اصواتاً ولكنها لم تبد حراكاً ولم يظهر عليها انها علمت بما كان يجري "

وكانت تطمح منذ صغرها الى دخول المدرسة ولما دخلتها اظهرت اقتداراً خصوصياً في اكتساب اللغات ودرس التاريخ والادب وقد نشرت كتابها المشار اليه وهي لم تلم السنة الثالثة في كلية ردكليف المتقدم ذكرها

وكانت تدرك خطب الاساتذة باشارات ترمم لها في كتبها وهما ما قالته في هذا الصدد " كانت كلمات الخطيب تكتب حروفها في يدي بما يمكن من السرعة فاشعر بها واقرأها بسرعة فائقة فتمر المعاني في ذهني سباتاً لحاقاً ولا اظن ان اللواتي كن يسمعن الخطيب ويكتبن ما يسمعن كن يدركن من معانيه اكثر مما ادرك "

اي انها كانت تسمع بكتبها ما يسمعه غيرها باذنه وقد ذكرنا ذلك لبعض النباه حين كتابة هذه السطور فاستغربه واستعده ولم يصدقوه ولا ندري كيف يصدقون ان الاذن لتأثر من تموجات الهواء تأثراً يكفي لجعل العقل يدرك معاني الالفاظ او ان العين

تأثر من امواج النور الشمعة عن الكتابة تأثراً يكفي لجعل العقل يدرك معناها ولا يصدقون ان الكف تأثر من كتابة الكلمات فيها بالاصح تأثراً يكفي لجعل العقل يدرك معانيها. واي واحد من البصريين يغمض عليه ويضع يده على كتاب ولا يعلم انه كتاب او يضع يده على تفاحة ولا يعلم انها تفاحة او يضع انامله على كتابة كبيرة بارزة الحروف ولا يقرأها اذا كان يستطيع القراءة. وعلى هذا النحو كانت هذه النواة تدرك ما نلته باناملها او ما يكتب في كفها الا انها مرتت شعورها فصار اداركها سريعاً جداً وقامت فيها حاسة الشمس مقام حاسني السمع والبصر

اما حاسة الشم فليست من الحواس التي يكثر الاعتماد عليها ولكن اذا فقد الانسان حاسة او حاستين فلا عجب اذا مرّن الحواس الاخرى وقواها ولذلك توت حاسة الشم في هذه النواة كما يستدل بما جاء في كتابها. من ذلك قولها "مشيتنا الى العريش مرتدين اليه برائحة الميعة التي كانت تغطيه واذا بتغير عظيم حدث في الجو لاني شعرت بانخفاض حرارة الشمس فقلت ان الفيم حجب وجهها. وشممت من الارض رائحة غريبة وهي التي كنت اسمها منها قبيل العواصف الكهر بائية". وقولها "كنت يوماً من ايام الربيع جالسة في المصيف اقرأ فشممت رائحة عطرية لطيفة ثم نيينتها فاذا هي رائحة زهر السنط". وقولها "كنا نسرّه بانخروج الى الغابات في عصر النهار واستنشاق الرائحة العطرية التي تهب من الارض في اواخر النهار" وقولها "شعرت بعال الريح من حركات عيدان الذرة واوراقها وبشخير الترس لما امكناهُ ووضعتنا البمام في قيو. ولا انسى رائحة نَفْسِ النَّعْلِيَّةِ". وقالت في وصف زيارتها للدكتور هلس "لما دخلت غرفته شممت رائحة الجلود وحبر الطباعة فعلمت انها مملوءة بالكتب" وقال الاستاذ جيترو الذي نقلنا عنه ما نقلتم انه سواهُ سار الانسان بالاكبرس او بركبة عادية او سار ماشياً على قدميه فالوصول الى المكان المقصود هو واحد كيفما كان السير اليه الا ان الطريقة الاولى سريعة والثانية بطيئة والثالثة متعبة وهذه النواة فقدت الحاستين اللتين يكون الاعتماد عليهما عادة في اكتساب المعارف ولكنها استخدمت حواسها الاخرى فبلغت الغرض المطلوب ولو بمشقة. وقد قالت في هذا الصدد "اني لما رأيت نفسي محرومة السير في السبيل المطروق لنيل المعارف اضطررت ان اسير اليها في طرق غير مطروق". ومن رأي الاستاذ جيترو ان قواها العقلية فائقة جداً ولا سيما في تعلم اللغات وكتابتها بدل على انها ممتازة بتوفد الذهن وقوة الذاكرة ودقة الملاحظة وسرعة الخاطر وبجدة الادب واتساع المدارك وبجدة الطبيعة والكتب هذه هي الصفات التي اشتركت في تكييف حياتها ومطالبها